

أزمة العقل العربي وصرع الدين في نظريات تكوين اللّغة- ابن جيّ أنموذجا-

The crisis of the Arab mind and the validity of religion in the theories of Ibn-Jinni.

المؤلف 1 (فاطمة دوحاجي) - المؤلف 2 (أحمد جلايلي)

جامعة ومؤسسة الانتماء للمؤلف 1 المركز الجامعي صالحى أحمد - النّعمة (الجزائر)

جامعة ومؤسسة الانتماء للمؤلف 2 المركز الجامعي صالحى أحمد - النّعمة (الجزائر)

البريد الإلكتروني: fathadji@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2018/09/21

تاريخ القبول: 2018/12/26

تاريخ النشر: 2019/03/19

ملخص: هذا المقال يهدف إلى بيان رأي العالم اللّغوي ابن جيّ في قضية نشأة اللّغة البشريّة، ولهذا الغرض عرضنا التعريف اللّغويّ للكلمة، ثم تعريفها الاصطلاحيّ، ثم تفاصيل البحث في تكوين اللّغة البشريّة، أو ما يسمّى بنشأة اللّغة في كتب فقه اللّغة العربيّة، وفي هذا الصّدّد تحدّث ابن جيّ عن مواقف ثلاثة، هي: القول بأن اللّغة البشريّة توقيف من الله، وقول ثانٍ: إنّ اللّغة توفيق من الله إلى البشر، أي أنّ الله مهّد للبشر تعليم اللّغة فيما بينهم، أو هي توفيق بين البشر أنفسهم بلا واسطة الله، أي هي تواضع بينهم، وفي قول ثالث: إنّ اللّغة محاكاة لأصوات الطّبيعة، والمعلوم في الدّرس اللّسانيّ العربيّ أنّ تعريف اللّغة السّائد في المؤلّفات العربيّة هو تعريف ابن جيّ، الذي أثبت جدارته عبر القرون الماضيّة، وقلمًا نجد فيه تغييرًا؛ وإنّ وجد فهو تغيير في اللفظ لا غير.

الكلمات المفتاحية: اللّغة ; الدّرس اللّساني ; ابن جيّ ; الكلام ; الأصوات.

ABSTRACT : This article aims to express the opinion of the linguistic world Ibn Jinni in the issue of the composition of the human language, and for this purpose we introduced the linguistic definition of the word, then its definition of terminology, and then details of research in the composition of human language, or the so-called origin of language in the books of Arabic philologie, Ibn jinni said about three positions, namely: to say that the human language is an arrest from God, and secondly: that the language is reconciled from God to humans, that is, God is the cradle of mankind to teach the language among them, or is the reconciliation between human beings themselves without the means of God, Among them, in the third statement: The language is a simulation of the sounds of nature, and is known in the Arabic language lesson that The definition of the dominant language in the Arabic literature is the definition of Ibn Jinni, which has proved its worth over the past centuries, and rarely find a change.

Keywords: The language; Ibn-JINNI; the word; the language lesson; the linguistic.

1. مقدمة:

عرفت الدّراسات اللّغويّة القديمة البحث في نشأة اللّغة البشريّة، وتمخض عن هذه البحوث مجموعة آراء، قد تكون متناقضة أحيانًا، وأحيانًا أخرى لم تصل بحوثهم إلى نتائج علميّة جادّة، وهو ما جعل الدّارسين المحدثين عربيًا وأعاجم يحجمون عن البحث اللّغويّ في مثل الدّراسات الغيبيّة، أو الدّراسات اللّغويّة التي لا تستند على فرضيات علميّة عقليّة، لأنّ الخوض في القضايا الفلسفيّة التي تستند على معطيات ما وراء الطّبيعة سوف لا تؤدي إلى نتائج ثابتة تقبل اليقين والتّعميم. ولكنّ مسألة البحث في نشأة اللّغة عند ابن جيّ أثارتها ظروف عصره العلميّة والسياسيّة والدينيّة، وشحذتها مناهج البحث في ذلك الزّمان، حيث كانت اللّغة العربيّة في أوج ازدهارها، لكونها كانت وعاء للدين الإسلاميّ، وما أنتجت الفتوحات الإسلاميّة من ثقافة متنوّعة وحضارة راقية، ولعلّ أبرزها ترجمة الآداب والعلوم والفنون، والانتفاع من اللّغات الأجنبيّة السّائدة في ذلك الوقت، وقد يكون أشهرها اللّغة الفارسيّة والسريانيّة واللّاتينيّة. ويجمع الدّارسون العرب على أن ابن جيّ كان فريد عصره في الدّراسات اللّغويّة، وأنّه اهتمّ بالبحث في جميع

مستويات اللّغة، إنّ صوتاً، أو صرفاً، أو تركيباً، أو دلالةً، إلا أنّ منهج البحث القديم لم يراع ترتيب هذه المستويات، ولا الشّروط التي ينبغي أن تكتمل في البحوث المعالجة.

وتعدّ مسألة نشأة اللّغة وبيان أفضليتها وقيمتها العلميّة من أكثر مواضيع البحث في الدّراسات التّراثيّة، لأسباب ذكرنا بعضها سابقاً، ولعلّ السّبب الرّئيس في التّعلق بها هو الأثر الدّيني، وما خلفته كتب اللّغة والتّفسير من الاعتزاز والافتخار في نفوس العامّة من المسلمين والدّارسين المتخصّصين. ومن سمات ابن جيّ في البحث اللّغوي أنّه ينطلق من تفاصيل جذر الكلمة المقصودة بالدّرس، كبيان حروفها الأصليّة، أو المزيدة، أو ما وقع لها من إبدالٍ، أو إعلالٍ، أو قلبٍ، ثمّ يتحوّل إلى البحث عن المعنى المعجميّ، ثمّ ذكر التّفصيل ذات الأهميّة في المعاني الاصطلاحية، وقد يذيل رأيه بأراء العلماء. وفي هذه التّفصيل يخوض ابن جيّ في البحث عن التّفرعات الدّلالية لمادته اللّغويّة، بعدما هيأ لها أرضيّة كانت في نظره صالحة، وهي مجموع نظره السّابقة في الجوانب الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة إن وجدت، لأنّ المعاني الاصطلاحية التي تحملها هذه المفردة أو غيرها لا يمكن أن تتجاوز قضاياها الصّوتيّة والصّرفيّة أو النّحويّة إلى الدّلالات العامّة، الأصليّة أو الفرعيّة منها، وعموماً فالدّلالة هي نتاج مستويات الصّوت والصّرف والتّركيب، والمعجم.

إنّ البحث الدّلالي بارز في مؤلّفات ابن جيّ، ذلك العالم الذي ترك بصمته العلميّة في القرن الرّابع الهجريّ، حيث غيّر التّفكير في مناهج البحث آنذاك، وأحدث رؤية متميّزة، على المستويين النّظريّ والتّطبيقيّ، وأحيا التّفكير اللّغويّ بمعالجة علميّة، مادّةً ومنهجاً.

لقد كان ابن جيّ أبرز علماء عصره الذين بحثوا المواضيع اللّسانيّة بجدارة، فهو العالم اللّغويّ الذي كان مبدعاً في بحوث لسانية، ومبتكراً فيها، وما تزال بحوثه اللّسانية محط أنظار الدّارسين في القرن الواحد والعشرين من الميلاّد، ولاسيما بحوثه في الدّلالة، وفي علاقة الدّلالة بالصّوت، وبالسّياق أيضاً، إنّها بحوث لسانية كان بارعاً في إخراجها. ولعلّ الكتاب الذي يمثّل الجدّة والجودة في البحث لغّةً ومنهجاً هو كتاب "الخصائص"¹، إذ كانت اللّغة فيه تهدف إلى حسن تصريف الكلام، وإلى الإبانة عن المعاني بأحسن وجوه الأداء، وفيه ناقش ابن جيّ مسألة نشأة اللّغة²، وبَيّن مجمل النّظريات التي كانت محلّ بحث في عصره، ومن أجود البحوث التي ناقشها فيه: الاشتقاق وأقسامه³، ومناسبة الألفاظ للمعاني، ونخصّ منها: "باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني"⁴، و"باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"⁵، و"باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"⁶، وفي هذه الأبواب أبدع ابن جيّ في رصد الظواهر اللّغويّة وتحليلها بمنهج وصفيّ يكاد يكون منهجاً علمياً متفرداً، وفيما يلي نعرض بعض الظواهر الدّلالية من جانبها: النّظريّ والتّطبيقيّ.

ولقد كانت نشأة اللّغة من أهمّ المواضيع التي أبدع فيها ابن جيّ، وأكثر في الاستدلال عنها، بتفاصيل أثقلت بعض كتبه، لأنّها كانت تشغل مكاناً مهماً في البحوث اللّغويّة آنذاك، ولا سيما في البحوث الدّينية لما لها من صلة مباشرة وقويّة بتفسير القرآن، وبيان براعة اللّغة العربيّة وإعجازها، وأوضح بالتعليل العقليّ أنّ اللّغة هي مجرد أصوات تواضع عليها البشر للوصول إلى أغراضهم الدّنيويّة، وكان له في هذا الباب آراء كثيرة إلى درجة التّدخل، أو التناقض، إذ أنّ القارئ يجد نفسه في حيرة الاختيار، لتنوعها وتعدّدها، ولذلك من

الصَّعُوبَةُ بِمَكَانٍ أَنْ يَفْتِكَ الْقَارِئُ مِنْ ابْنِ جَنِّي رَأْيًا قَاطِعًا وَفَاصِلًا فِي شَأْنِ اللَّغَةِ، أَهِيَ تَوَاضِعٌ، أَمْ تَوْقِيفٌ مِنَ اللَّهِ، أَمْ هِيَ مَجْرَدُ أَصْوَاتٍ خَلَقْتَهَا الطَّبِيعَةُ، وَسَنَعْرُضُ رَأْيَهُ فِي اللَّغَةِ وَنَشَأَتِهَا مَفْصَلًا.

2. الاستدلال عن نشأة اللغة البشرية:

لقد شغل موضوع اللغة الدارسين منذ القدم، عربًا كانوا أو أعاجم، فاهتموا بهذا الموضوع أيما اهتمام، وألف المسلمون فيه المصنّفات المختلفة، وانصبّت عنايتهم على تعريف اللغة، وكيفية نشأتها، وأسباب تطورها، وتحدّثوا عن أفضل اللغات، وأشرفها في الدنيا والآخرة، واهتدوا إلى أنّها لغة القرآن الكريم. ومما لا ريب فيه أنّ ابن جنّي واحدٌ من العلماء المجتهدين الذين بذلوا الطّاقة، وتحملوا المشقّة في البحث عن دقائق اللغة، وعلوم الدين، فكانت له كتابات في قضايا فقه اللغة، فتحدّث عن تعريفها ونشأتها، وعن المعرّب في القرآن الكريم، فهل قدّم إسهامات في هذه المباحث المذكورة؟

3. تعريف اللغة:

علمنا أنّ ابن جنّي هو أول العلماء العرب الذين عرفوا اللغة تعريفًا دقيقًا، ذا صلةٍ قويّةٍ بتعريف العلم الحديث لها، فما هو هذا التعريف؟

1.3. التّعريف اللّغوي:

قال ابن جنّي في تعريف اللغة حسب ما ورد في كتابه "الخصائص": "إنّ اللغة «مِنْ لَعُوْتُ، أَي: تَكَلَّمْتُ»⁷، فهذا هو المعنى المعجمي الذي أثبتته ابن جنّي، وهو التّعريف الذي تكرر في جميع المؤلفات التي صدرت بعده حتى العصر الحديث، وهو التّعريف نفسه الذي أثبتته محمد بن يوسف أطفيش من الباحثين المحدثين الجزائريين في كتابه "شرح لامية الأفعال"⁸. فالحروف الأصول المكوّنة للفظ "اللغة" الأصلي عند ابن جنّي هي الحروف المكوّنة للفظ "لغوة"، كما قال: «وأصلها لُغُوَةٌ كـ"كُرَّة" و"قُلَّة" و"ثُبَّة"، كلّها لاماتها واوات»⁹، أي أنّ الحرف الثالث للفظ اللغة هو الواو، وهو الحرف الموافق لحرف اللّام في الوزن "فَعَلّ".

2.3. التّعريف الاصطلاحي:

إنّ التّعريف الاصطلاحيّ للغة عند ابن جنّي تعريف ذو أهميّة في الدرس اللّغويّ القديم والحديث، لذلك كان له الأثر الواضح في مؤلّفات العلماء المتأخرين، إذ يقول ابن جنّي في تعريف اللغة: «أما حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»¹⁰. فالمتأمل في هذا التعريف يلمس فيه عناصر معيّنّة، هي: الصّوت البشريّ؛ والتعبير المقصود؛ والمتكلم؛ والسّامع. وهذه العناصر جميعها هي التي تُحدِثُ عمليّة التّفاهم بين أفراد المجتمع الواحد، وهي العمليّة نفسها التي نسميها الكلام، وفي ذلك يقول فنديس: «في أحضان المجتمع تكوّنت اللغة، وُجِدَتْ اللغة يوم أحسّ النّاسُ بالحاجة إلى التّفاهم فيما بينهم... فاللغة - وهي الواقع الاجتماعيّ بمعناه الأوفى - تنتج من الاحتكاك الاجتماعيّ، وصارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات، وقد دانت بنشوتها إلى وجود احتشاد اجتماعي»¹¹، فهذا قول فنديس يوضح أنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة، أو هي عمل مكتسب من الإنسان وإلى الإنسان، وهو التّعريف المفهوم نفسه الذي تحمله عبارة ابن جنّي.

والمعلوم في الدرس اللساني العربي أنّ تعريفات اللغة السائدة في المؤلفات العربية هو تعريف ابن جني، وهو التعريف الذي أثبت جدارته عبر القرون، والذي تناقلته المؤلفات بحذافيره؛ وقلّمنا نجد فيها تغييراً؛ وإن وجد فهو تغيير في اللفظ لا غير¹².

بل إنّ التعريفات التي أدرجت في جميع المؤلفات التي صدرت بعد ابن جني أو في عصره لا تحيد عن التعريف الذي حدّه ابن جني، وإن كانت الدراسات العربية القديمة لا تفرق بين بعض المصطلحات المتقاربة في الاستعمال، ومنها: الكلام واللسان واللغة¹³، لأنّ المنهج السائد قديماً كان متأثراً بمفاهيم لغوية موروثية عن النحاة القدماء الذين قالوا: «الكلام هو المركب من حرفين فصاعداً»¹⁴، وقالوا: «إنّه قولٌ مفيدٌ»¹⁵. وقالوا: «لا يستعمل الجملة»¹⁶، وقالوا: «هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى»¹⁷. وقالوا: هو ما «اجتمع فيه أمران اللفظ والإفادة»¹⁸.

وعبر اللغويون عن "الكلام" باللغة، كما هو واضح في تعريف ابن جني: «أما حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»¹⁹. لأنّ تعبير الإنسان عن غرضه بالصوت لا يكون إلا كلاماً بالمفهوم اللغوي الحديث (La Parole). ومهما يكن فإنّ الخلاف بين النحاة في تعريفاتهم للكلام في معظمه خلاف لفظي، اللهم إلا في خلافهم عن الكلام والجملة لما بينها من فرق، فالكلام من شرطه الإفادة، بينما الجملة قد لا تفيد، كجملة الشرط، وجملة الصلّة، وعلى ذلك فالكلام أخصّ منها، والجملة أعمّ منه²⁰. وعلى الرغم من هذا الخلط في المفاهيم اللغوية فإنّ الدارس العربي كان على وعي كامل بالمادّة المدروسة، لأنّهم درسوا الكلام (La Parole)؛ لا اللغة بمفهومها الحديث (La Langue)، فاللفظ والإفادة عند النحاة يساوي "الكلام"، وأمّا اللغة (La Langue) فلن تكون إلا ألفاظاً مخزنة صامتة في ذاكرة الفرد، أو في ذاكرة المجتمع المنتهي له. وبعبارة أخرى فاللغة هي امتلاك الفرد للآلية اللغوية من غير استعمال، والكلام هو أداء واستعمال للمخزون اللغوي عن طريق التلّفظ، وهو الذي عناه العلماء العرب وعلى رأسهم ابن جني.

4. نشأة اللغة:

تساءل العلماء منذ عهود قديمة عن اللغة، باعتبارها قضية تخصّ الإنسان، فقالوا: أي لغة كانت الأولى؟ ولماذا تعددت اللغات؟ وهل هي من وضع الإنسان؟ أم هي توقيف من الله؟ وهذا المواضيع البحثية يرفضها البحث العلمي الحديث، ويرى أنّها بحث عبثي، لأنّه لا يعتمد على استدلالٍ علميٍّ جاد، وعلى الرغم من الاستدلال الهش الذي يبرر به العلماء قديماً فإنّهم حاولوا الاجتهاد في الإجابة عن هذه التساؤلات السابقة الذكر، وكانت إجاباتهم عليها مختلفة، بل كانت متناقضة، لأنّ دراساتهم كانت في مواضيع غيبية ميتافيزيقية يفسرها الدارسون بحسب ميولاتهم العقديّة، أو نزعتهم العرقية، أو بحسب أهوائهم الشخصية، غير مستندين على دراسات علمية جادة، أو على وثائق أو بيانات رسمية تؤكّد أحكام نتائجهم، وتقعن المتلقي،

ويطمئن إليها المنهج العلمي، بل كلّ ما توّصل إليه العلماء من نتائج ما هو إلا ضرب من التخمين أو الافتراض قد يصيب ويخطئ، والدليل على ذلك هذه النتائج المختلفة التي اهتدى إليها العلماء قديما، وكان من أكثرهم مناقشة وتحليلا ابن جني حيث ناقش قضية اللّغة من الجوانب الآتية²¹:

1.4. اللّغة توقيف:

اللّغة توقيف من الله، وإليه يميل أحيانا ابن جني، وهذا مذهب الأشعرية، إذ يقرّون بأنّ اللّغة من وضع الله، معتمدين في هذه النتيجة على قول الله تعالى: [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا] ²²، فالأسماء هي أسماء مسميات ²³، فبناء على هذه الآية الكريمة استقر رأي الأشعرية على أنّ اللّغة وصلت إلى الإنسان بوحى من الله إلى آدم، وكان من أكبر العلماء المسلمين المدافعين عن هذا الرأي أبو عليّ الفارسي (ت377هـ)²⁴ أستاذ ابن جني، وأحمد ابن فارس (ت395هـ)، حيث قال ابن فارس باللفظ الصريح: «إنّ لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جلّ ثناؤه: [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا]، فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»²⁵.

فهذا ابن فارس اللّغوي يؤكّد أنّ اللّغة توقيف بناء على الآية الكريمة؛ ويذهب إلى أنّ الإنسان لا يستطيع أن يسمي المسميات، لأنّه عاجز عن وضع اللّغة، وكان يرى أنّ اللّغة نزلت عن طريق الوحي على آدم -عليه السلام - بما كان يحتاج إليه زمانه، ثم انتشرت بعده مع الأنبياء العرب إلى أن انتهى أمرها مع الرسول محمد عليه الصلّاة والسّلام.

بل ذهب ابن فارس الى أبعد من ذلك فقال: إنّ الخط العربيّ توقيف من الله ²⁶، وكذلك علمي النّحو والعروض، فهي من العلوم العربيّة القديمة التي اندثرت بطول الزّمان ثم تجددت في زمان إيقاظ همم الرّجال والعلماء أمثال: أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي ²⁷. وسار القرطبي على منهج ابن فارس في إثبات اللّغة توقيفا، ²⁸، ثمّ يواصل ليعلّل ضرورة تعليم آدم الأسماء ²⁹، وقال أيضا: إنّ آدم هو أوّل من تكلم باللّغات البشريّة على الإطلاق ³⁰. وفي هذا إشارة صريحة إلى أنّ الله علّم آدم اللّغة، فكان المعلّم الأوّل للّغة البشريّة.

وابن جني نراه يتقبل نظريّة التّوقيف بشروط، لأنّ الله يتنزّه عن التّواضع مع البشر بالإشارة أو الإيماء مباشرة، لأنّ التّواضع تتمّ كيفياته بالكلام أو باليد، والله يتنزّه عن الجوارح، لأنّه مخالف للحوادث، فلا ينبغي أن يكون الله علّم البشر الأسماء بكلامه، أو بالإشارة، أو الإيماء، حيث يقول في باب القول على أصل اللّغة إلهام هي أم اصطلاح؟: « هذا موضع محوج إلى أفضل تأمل، غير أنّ أكثر أهل النّظر على أنّ أصل اللّغة إنّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف، إلا أنّ أبا علي -رحمه الله- قال لي يوما: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا] وهذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك أنّه قد يجوز أن يكون تأويله: "أقدر آدم على أنّ واضع علمها"، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة»³¹، أي أنّ الله ألهم البشر على التّواضع، وأنّ العمليّة لا

تمم إلا بين البشر، دون أن يتدخل الله في التواضع مباشرة. ويشير ابن جتي في موضع آخر إلى هذا الرأي، فيقول: «وذلك أنني تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاق، والرقّة، ما يملك علي جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر، فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا . رحمهم الله . ومنه ما حدوته على أمثلهم، فعرفت بتتابعه وانقياده، وبعد مراميه وأماديه، صحة ما وُفقوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به، وفُرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار الماثورة بأنها من الله عز وجل، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنها وحي»³²، أي بتسخير الله وبوحيه يعلم البشر بعضهم بعضاً اللغة، وينقلونها إلى الأجيال اللاحقة.

2.4. اللغة تواضع:

ذهب أهل الاعتزال إلى أنّ اللغة من وضع البشر ابتداءً، ويتناقلها أجيال إلى أجيال، وينسب هذا الرأي إلى ابن جتي، انطلاقاً من بعض أقواله حيث يقول: «هذا موضع محوج إلى أفضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أنّ أصل اللغة إنّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»³³، ولعلّ ابن جتي واحد من أهل النظر الواسع في المسائل اللغوية والفلسفية، فلا يمكن أن يكون ابن جتي خارجاً من الكثرة التي ترى رأي التواضع والاصطلاح في اللغة.

ويغلب ظننا أنّ ابن جتي يحاول الجمع والتوفيق بين نظرتي التوقيف والاصطلاح، ويمكن أن نستند في نظرية الجمع بين التوقيف والاصطلاح على ذلك الحوار الذي يجريه ابن جتي مع واحد من المعتزلة في هذه المسألة اللغوية دليلاً على قناعته بالتواضع على اللغة، إذ يقول: «إلا أنّي سألت يوماً بعض أهله، فقلت: ما تنكر أن تصحّ المواضعة من الله تعالى؟ وإن لم يكن ذا جارحة، بأن يحدث في جسم من الأجسام، خشبة أو غيرها، إقبالا على شخص من الأشخاص، وتحريكاً لها نحوه، ويُسمع في نفس تحريك الخشبة نحو ذلك الشخص صوتاً يضعه اسماً له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفعاتٍ مع أنّه . عزّ اسمه . قادر على أن يقنع في تعريفه ذلك بالمرّة الواحدة، فتقوم الخشبة في هذا الإيماء وهذه الإشارة، مقام جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضعة، وكما أنّ الإنسان أيضاً قد يجوز إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه، فيقيمها في ذلك مقام يده، لو أراد الإيماء بها نحوه؟ فلم يجب عن هذا بأكثر من الاعتراف بوجوبه، ولم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكّيه عنه، وهو عندي وعلى ما تراه الآن لازم، لمن قال بامتناع مواضعة القديم تعالى لغة مرتجلة غير ناقلة لساناً إلى لسان، فاعرف ذلك»³⁴.

أجل، قد عرفنا من سؤال ابن جتي لذلك المعتزلي أنّه يجوز المواضعة بتسخير الله لشيء ما، كالخشبة أو نحوها، كأن تنطق الخشبة باسم لمسمى ما، وتردده أمام إنسان ما، فيتعلّم ذلك الإنسان اللغة، وقد تستعمل

الخشبة من لدن الإنسان وسيلة للإشارة إلى اسم ما فيعلم السّامع أن هذا الشيء يسمى كذا، فعلمنا من هذا النص أن المعتزلي اعترف بالاستدلال الذي جمع فيه ابن جني بين نظرتي التّوقيف والاصطلاح. ولعل رأي ابن جني يستفاد من قوله: « وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار الماثورة بأنّها من الله عزّ وجلّ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنّها وحي »³⁵، وأنّ قوله دعوة إلى التأمّل في أنّ اللّغة اصطلاح بين البشر، ولكنّ الاصطلاح بتوفيق من الله ووحيه، ولا تحصل الفائدة من غير توجيهات الله للبشر في عملية التّعلم الأولى.

3.4. اللّغة محاكاة الأصوات:

ذهب فريق ثالث إلى أنّ اللّغة نشأت في بدايتها عن محاكاة أصوات الطّبيعة، واستحسن هذه النّظرية ابن جني كذلك، وهي عنده مذهب متقبّل³⁶. وتلقى هذه النّظرية تقبلاً عند المحدثين العرب وعلماء الغرب على حد سواء، فمن العرب علي عبد الواحد وافي في كتابه "علم اللّغة"³⁷، وإبراهيم أنيس في كتابه "دلالة الألفاظ"³⁸. ومن علماء الغرب يسبرسن (Yespersen) وهو الذي أطلق عليها نظرية (BOW-WOW)³⁹، وهناك من عارضها وفنّد حججها، فمن العرب عبده الراجحي في كتابه "فقه اللّغة في الكتب العربيّة"⁴⁰، ومن علماء الغرب فنديريس (-J Vendryes) في كتابه "اللّغة"⁴¹، وسابير (Sapir) في كتابه "اللّغة"⁴².

إنّ ابن جني كان واضحاً في رأيه بأنّ اللّغة تنشأ بدءاً من الأصوات المسموعة، ووضوح هذا الرأي يستنبط من قوله: « وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللّغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الطّبي ونحو ذلك، ثم ولدت اللّغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبّل »⁴³، ولكن لا نعتقد أنّ اللّغة كلّها ناشئة من الأصوات المسموعات، إنّما الرأى الصّواب في نظرنا أن تكون بعض الألفاظ محاكاة للطّبيعة، وربّما هو الذي يعنيه ابن جني في قوله: « إنّما هو من الأصوات المسموعات»، أي أنّ الأسماء بعض من الأصوات الطّبيعيّة.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، رواية حفص

- جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد محمد قاسم، (ط1)، مطبعة السعادة، القاهرة، 1296هـ/1976م، ص:31.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (دط)، دار الشروق، القاهرة، مصر، (دت)
- محمد بن يوسف أطفيش، شرح لامية الأفعال، (دط)، مطابع سجل العرب نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1407هـ/1986م
- الشريف الجرجاني، التعريفات، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995 م
- تيسير التفسير، (الطبعة الحجرية):4 (2ق)/710
- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، (دط)، (د مط)، القاهرة، 1958م

- للشـيخ خالد الأزهرى، شرح التصريح على التوضيح، (دط)، دار إحياء الكتب العربية، وفيصل عيسى البابي الحلبي، مصر، (دت)
- رضي الدين الأسترآبادي، شرح كافية ابن الحاجب في النحو، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت)
- ابن يعيش، شرح المفصل، (دط)، عالم الكتب، بيروت، (دت)
- أحمد بن فارس، الصحاحي في فقه اللغة ولسان العرب في كلامها، (دط)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، (دت)
- عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، (دط)، (دب)، (دت)
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (دط)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ/1986م
- فنديرس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، (دط)، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر، 1950م
- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، (ط1)، دار الفكر، دمشق، 1996م
- جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وآخرين، (دط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م
- محمد بن يوسف أطفيش، المسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية، مخطوط برقم (أ.م: 5)، مكتبة القطب، غرداية، الجزائر
- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن الكتب الأعراب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (دط) العصرية، بيروت، 1991م
- تمام حسان، منهج البحث في اللغة، (دط)، دار الثقافة، المغرب، 1986م
- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، (دط)، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1962م
- جلال الدين السيوطي، همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، تصحيح: السيد محمد بدرالدين النعساني، (ط1)، مكتبة الخانجي، مصر، 1327هـ

الهوامش

- 1- عنوان الكتاب: "الخصائص"، أو "خصائص العربية"، صنعة أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، مقدمة الطبعة الأولى سنة: 1952م، لصاحبها المحقق: محمد علي النجار.
- 2- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 1/33-40.
- 3- نفسه، 1/12.
- 4- نفسه، 2/113.
- 5- نفسه، 2/145.
- 6- نفسه، 2/152.
- 7- نفسه، 1/33.
- 8- محمد بن يوسف أطفيش، شرح لامية الأفعال، (دط)، مطابع سجل العرب نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1407هـ/1986م: 1/121.
- 9- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 1/31.
- 10- نفسه، 1/33.
- 11- فنديرس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، (دط)، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر، 1950م، ص: 35.
- 12- لقد ألف أحمد بن فارس والنعماني في فقه اللغة كتابين: الصحاحي، وفقه اللغة، ولم يعرفا فيهما اللغة. وألف الشريف الجرجاني والسيوطي كتابا في هذا الشأن، ولكنهما اكتفيا بما بعرض ما قدمه ابن جني. يراجع: الشريف الجرجاني، التعريفات، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ص: 192.
- 13- تيسير التفسير، (الطبعة الحجرية): 4 (ق2)/710، والمصدر نفسه: 3/652. لقد فرّق المحدثون بين هذه المصطلحات انطلاقاً من دراسات دوسوسير (SAUSSUREDE) إذ فرق بين مصطلحات ثلاثة وهي: (أ)- اللغة (LE LANGAGE): اللغة بمعناها الإنساني العام، ولها جانبان من الدراسة وهما: اللسان والكلام.

- (ب)- اللسان أو اللغة المعينة (LA LANGUE): وهي الجزء المتحقق من اللغة بمعناها الإنساني، وهو ما يعرف عادة باللسان العربي، أو اللسان الإنجليزي، أو اللسان الفرنسي، أو غير ذلك.
- (ج)- الكلام (LA PAROLE): وهو المكون من أصوات، وهذه العملية فردية تنتمي إلى اللسان. فاللغة إذن ليست هي الكلام عند علماء الغرب المحدثين، وأجمع على صحة هذه الفروق في المصطلحات المذكورة كثير من علمائنا في العصر الحاضر، وهذا ما لم يشر إليه العرب القدامى في الدرس اللغوي. يراجع: PAYOT GENERALE DE SAUSSURE COURS DE LINGUISTIQUE, PARIS 1969 p=37، وتمام حسان، منهج البحث في اللغة، (دط)، دارالثقافة، المغرب، 1986م، ص: 39، وأحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، (ط1)، دار الفكر، دمشق، 1996م، ص: 18.
- 14 - رضي الدين الأسترآبادي، شرح كافية ابن الحاجب في النحو، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت): 3/1.
- 15 - جلال الدين السيوطي، همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، تصحيح: السيد محمد بدرالدين النعساني، (ط1)، مكتبة الخانجي، مصر، 1327هـ: 10/1.
- 16 - ابن يعيش، شرح المفصل، (دط)، عالم الكتب، بيروت، (دت): 20/1، والخصائص: 32/1.
- 17 - ابن يعيش، شرح المفصل، (دط)، عالم الكتب، بيروت، (دت): 20/1.
- 18 - الشيخ خالد الأزهرى، شرح التصريح على التوضيح، (دط)، دار إحياء الكتب العربية، وفيصل عيسى البابي الحلبي، مصر، (دت): 19/1، ومحمد بن يوسف أطفيش، المسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية، مخطوط برقم: (أ.م: 5)، مكتبة القطب، غرداية، الجزائر، ص: 5.
- 19 - ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 33/1.
- 20 - ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن الكتب الأعراب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (دط) العصرية، بيروت، 1991م: 431/2.
- 21 - قسم السيوطي هذه الآراء على ثلاثة مذاهب هي: (1) مذهب الأشعرية. (2) مذهب المعتزلة. (3) مذهب الوقف. بينما ارتأينا أن يكون التقسيم غير ذلك. يراجع: جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، (ط1)، تحقيق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1296هـ/1976م، ص: 31.
- 22 - البقرة، من الآية: (31)، والآية كاملة هي: [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ].
- 23 - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (دط)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ/1986م: 125/1.
- 24 - ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 40/1.
- 25 - أحمد بن فارس، الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، (دط)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، (دت)، ص: 6.
- 26 - نفسه، ص: 10.
- 27 - نفسه، ص: 11.
- 28 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (دط)، دار الشروق، القاهرة، مصر، (دت): 238/1.
- 29 - نفسه، ص: 238/1.
- 30 - نفسه، ص: 242/1.
- 31 - ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 40/1.
- 32 - نفسه، 47/1، ويراجع: جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وآخرين، (دط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م: 15/1.
- 33 - ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 40/1.
- 34 - نفسه، 46/1.
- 35 - نفسه، 47/1، ويراجع: المزهري: 15/1، والاقتراح، ص: 31.
- 36 - ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 46/1.
- 37 - علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، (دط)، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1962م، ص: 96.
- 38 - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، (دط)، (دمط)، القاهرة، 1958م، ص: 17.
- 39 - LANGUAGE ITS NATURE,— LONDON 1964, P: 413. DEVELOPMENT AND ORIGIN
- 40 - عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، (دط)، (دب)، (دت)، ص: 90.
- 41 - فندريس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، (دط)، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر، 1950م، ص: 40.
- 42 - LANGUAGE SAPIR (EDWARD, NEWYORK 1921.) P: 5
- 43 - ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1952م، 46/1.